هوِتمان شاعِرُ الدّيموقراطيّة

تعلم عبد الله يونس

عندما أدرج اسم (وولت هوِتمان) في سجل عظماء اميركا، لم يكن قد مضى على سنة ١٨٩٢ – وهي سنة وفاته – غير وقت قصير. ولكن الشيء الذي يسترعي الاهتمام، هو أنه استطاع مؤخراً أن يفوز بلقب : شاعر الشعب (Poet of people) ، في الوقت الذي عجز كثير من أدباء القارة الجديدة عن الحصول عليه .

ولكن... عندما طلع هوِتمان على الناس بطريقته الشعرية الجديدة – التي كانت تسمية الأستاذ ميخائيل نعيمه لها بالطريقة الانسراحية أقرب ما تترجم به – أقول عندما طلع عليهم بهذه الطريقة، لم يعيروه التفاتاً ، ولم يجد منهم ما يشجعه على المضي، ولكنه مضى رغم ذلك ، واستطاع أن يجعل اميركا تحتفل – مفتخرة – بذكراه كل عام .

إذن – كيف كان ذلك ؟

ولد هوِتمان عام ١٨١٩ على ساحل قريب من نيويورك . وهناك قضى طفولته الأولى . وكم هلل الفتى الصغير لمياه البحر، وابتهج لأصوات الأمواج، وابتسم لوداعة الحقول ، مما جعل لكل ذلك أثراً ملموساً في شعره عندما كبر .

وكثيراً ما وقف على صخور ذلك الشاطيء ، وحدّق في شيء بعيد ، يكمن وراء الآفاق ، وفكر في أشياء كثيرة كانت تحيره . ولنسمعه يقص علينا ذلك :

في بقعة ما من الأرض
وجد مرة طفل
كان يذهب بعيداً ..
بعيداً كل يوم
وأول ما كان يفكر فيه :
هو .. كيف وجد ؟
ثم أصبح ما كان يفكر فيه بالأمس
بضعة من كيانه .

وكان أبوه مزارعاً . ولما كبر ، تنقل في حرف عديدة ، وانتهى به المطاف بأن أصبح محرراً في إحدى جرائد نيويورك. ولكن ذلك لم يدم، إذ لم يلبث هوِتمان أن ترك عمله بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة .

وبعدها ، طوّف في أنحاء اميركا ، وزار الولايات الشمالية ، خلال رحلة طويلة قام بها . وكان ينتقل فيها بواسطة مراكب السفر العمومية ، والقوارب في عرض الأنهار .

وخلال هذه الرحلة، بدأت تتشكل

هوِتمان

في نفسه ، النواة الأولى للفكرة التي اعتنقها فيما بعد، ونذر بقية حياته لخدمتها. فهوِتمان أخذ يشعر بحبه للأرض ، جميع الأرض، دون أن يعترف بحواجز أو حدود :

قوياً مبتهجاً .. أنا أسافر
خلال الدرب العريض
أنا استنشق المجالات العظيمة من الفراغ
الشرق والغرب لي
والشمال والجنوب لي

ثم عاد إلى نيويورك ، وقد نمت تلك الفكرة عنده أكثر من ذي قبل ، وبدت – وان لم تكن واضحة تمام الوضوح – في أشعاره الأولى ، التي عكف على كتابتها بعد انتهائه من رحلته ، تلك الرحلة التي شاهد فيها كثيراً من الأراضي البكر العاطلة ، التي لم تمتد اليها يد الانسان لاستثمارها فانطلق يردد :

أنظر إلى اميركا
ملايين من الفدادين البكر العاطلة
تحرروا .. وافتحوا الابواب
هناك رجال كثيرون من جميع الأجناس
وأراض قليلة جداً .

وفي مياه نيويورك ، شاهد مئات السفن التي تمتلىء بها هذه المياه من مختلف القارات ، وشعر بالعطف والشفقة على أولئك البحارة ، الذين لم تكن حياتهم تعني شيئاً بالنسبة للجميع ، غير آلات جامدة تدب ببطء بين السفن والبر ، وتعمل دائبة بصمت وسكون .

ولكن هذا العطف الذي تحسّسه

في نفسه ، نحو أولئك البحارة ، ما لبث أن اتسع وامتد ، حتى شمل جميع الناس ، من جميع الأجناس . وانطلق يردد بسلام ، كمن وجد ما كان يفقده منذ زمن طويل :

أنا أحيي كل قاطني هذه الأرض
.. كل منا لا حدود له
.. كل منا يعيش بحقه على الأرض
.. كل منا يعي المضمون الازلي لهذه الأرض

ومنذ ذلك الوقت وُلد حلم هويتمان بالدولة الديمقراطية ؛ ذلك الكنز الذي عثر عليه فجأة ، وآمن بصلاحه وملاءمته للنوع الانساني والكرامة البشرية . وقام يدعو إلى تلك الدولة التي حلم بها ، مجنداً في سبيل ذلك جميع قواه وإمكانياته .

وكانت قصائده التي قالها في ذلك الوقت ، معبرة عن أحلام فئة من الطليعة الذين اتجهوا إلى الغرب .. إلى الأراضي البكر ، حيث يستثمرونها ، ويعيشون متحدين ، عيشة ديمقراطية يلفعها السلام والطمأنينة . فهويتمان يحلم بالمدينة الفضلى ، وهو يؤمن بانها ستحل هذا العالم ، لأنها – كما يعتقد – وعدٌ وُعدت به الأرض منذ الآف السنين .

ولذلك كانت معاول تلك الفئة التي اتجهت إلى الغرب ، تشق صدر الأرض العذراء ، على صدى قصائد هويتمان المتعالية بقوة وإيمان :

أيتها التمثيلية الممتعة البهيجة
أيتها الأرض المشمسة الفسيحة
أنا أرى فيك تأكيداً بالمجيء
وعدُ الآلاف من السنين
يؤخر الى الآن
أرى النبوغ الحديث
ابن الحقيقة والمثل الاعلى
يمهد الطريق للانسانية
كي تبني مستقبلاً أفضل .

ولم يحبس عنا هويتمان تخيله للدولة الديمقراطية ، بل قام يخبرنا كيف يريدها أن تكون ، وهنا يضع أساساً متيناً من الأسس التي تعتمدها الديمقراطية اليوم .

فقد كان يريد الحكام في دولته هذه وكلاء فقط عن الشعب ، لقاء أجرٍ يدفع لهم ، وبذلك تنعدم سلطة الفرد واستبداده في هذه الدولة .

وها هو يصور لنا المدينة الفاضلة التي تُبنى على أساس من الديمقراطية الصحيحة :

أعطني وجوهاً وشوارع
أعطني عيوناً لا متناهية .. أعطني نساء
أعطني أصدقاء وأحباء بالألوف
إنها مدينة فاضلة
تلك التي تحوي أفاضل الرجال والنساء
وحتى إذا لم يكن هناك
سوى بضعة أكواخ صغيرة
إنها تبقى أعظم مدينة
في العالم بأسره
هناك حيث المواطن
دائماً المثل الأعلى
والرؤساء والحكام
ليسوا الا وكلاء بالمقابل
وهناك فقط ..
تقف المدينة الفاضلة .

ثم نشبت الحرب الأهلية . وشاهد هويتمان الرعب الجامح نتيجة الصراع بين الشمال والجنوب ، وانطلق إلى ساحات القتال ، جاعلاً من نفسه ممرضاً للجرحى ، ومواسياً للمتألمين ، ومخففاً لشقاء المصابين . وفي تلك المعارك ، حيث كان الصراع على أشده بين الفريقين ، تعالى صوت هويتمان :

فوق اشلاء الورود
يتنبأ صوت :
لا تفتر عزائمكم
المحبة ستحل مشكلة الحرية
وأولئك الذين يحبون بعضهم البعض
لن يهزموا أبداً .

وخلال الفترة التي عاشها بعد ذلك ، شاهد انشاء الصناعات الكبرى ، واستقرار المقاطعات الجديدة ، وانتظام الحياة في أميركا .

وأخيراً .. مات هويتمان . وخفتت بموته تلك الفكرة الحية التي تعشقت الحرية .. وأحبت الشعب وفنيت في سبيله ، والتي بلغت السمو في تمجيدها للطبيعة البشرية ، وجهادها لأجل الديمقراطية .

ولهذا استحق هويتمان أن يفوز بلقب : شاعر الشعب .. الشعب الذي أحبه ، واستحق أن يصنّف في عداد عظماء اميركا . وأخيراً في عداد عظماء العالم ، الذين يمثلون تلك الحفنة من الخير ، التي تدفع إلى الأمل ، في أن الحياة ما زالت جديرة بأن تعاش على هذه الأرض . ويميل البعض إلى القول – وهم أميركيون بالطبع – بأن هويتمان تمكن أن يشاهد – في الفترة الأخيرة التي عاشها – اميركا الديمقراطية التي طالما حلم بها .

ولكن .. لئن عاشت اميركا تلك الدولة الديمقراطية فترة من الزمن ، فهي تلك الفترة التي كان ذراعاها بعد ضعيفين فيها لا يقويان على خنق الحريات . وفي اميركا هذه – لا التي نراها اليوم – قال : « أنا أسمع اميركا تغني ... الأغاني المختلفة البهيجة . انا اسمع ، غناء الحطاب في الغابة . غناء صبي المحراث في طريقه عند الصباح . غناء الأم الشهي الحنون . كلٌ يغني ما يخصه .. ويخصها ويخص لا أحد ايضاً »

ولكن ما عسى هويتمان أن يقول ، فيما لو بُعث اليوم ، وشاهد ما يُرتكب وراء تمثال الحرية ؟

طرطوس

عبد الله يونس